

المدخل

طريقُ الوصولِ إلى تدبر
القرآن الكريم



oboi.kanda.com



تَدَبَّرَ الأمرَ لغةً؛ أي: نَظَرَ في عواقبه^(١)، وقال في تاج العروس: في الكتابِ العَزِيزِ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾^(٢) أي أَلَمْ يَتَفَهَّمُوا ما خُوطِبُوا به في القرآن؟ وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(٣)، أي أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ فيَعْتَبِرُوا، فالتدبر هو التَّفَكُّرُ والتَّفَهُُّمُ^(٤).

فيكون معنى تدبر القرآن: هو التفكير والتأمل في كلام الله لأجل فهمه، وإدراك معانيه وحكمه، والمراد منه .



(١) أساس البلاغة (ج ١ - ص ١٢٩).

(٢) المؤمنون: ٦٨.

(٣) محمد: ٢٤.

(٤) تاج العروس (١/ ٢٨١٤).

oboi.kanda.com



حَدِيثُ الْقُرْآنِ عَنِ التَّدْبِيرِ

ذكر الله تعالى في كتابه العزيز علاماتٍ وِصَفَاتٍ؛ تصف حقيقة تدبر القرآن الكريم وتوضحها بجلاء، يقول الله تعالى آمراً عباده بتدبر القرآن، وناهياً لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(١)^(٢). ويقول ابن القيم في النوع الرابع من أنواع هجر القرآن: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه^(٣). وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(٤)، قال ابن كثير: وترك تدبره وتفهمه من هجرانه^(٥)، وروى ابن كثير عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾^(٦)، قال: والذي نفسي بيده؛ إن حقَّ

(١) النساء: ٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير (٢/ ٣٦٤).

(٣) الفوائد / ابن القيم (١/ ٨٢).

(٤) الفرقان: ٣٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير (٦/ ١٠٨).

(٦) البقرة: ١٢١.

تلاوته أن يُحِلَّ حلاله، ويُحرِّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله^(١). ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٢)، فهم بخلاف الكافر الذي ذُكِرَ بآيات ربه فاستمر على حاله، كأن لم يسمعها أصم أعمى، قال مجاهد: قوله: ﴿لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾^(٣): لم يسمعوا، ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئاً، وقال الحسن البصري: كم من رجل يقرأها ويخرُّ عليها أصم أعمى!^(٤).

وانظر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٥)، فقد وصفهم الله تعالى بسيل الدمع عند البكاء، ورقة القلب عند سماع القرآن^(٦)، إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه، والذي لا يجدون له في أول الأمر كِفَاءً من التعبير إلا الدمع الغزير، وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول؛ فيفيض الدمع ليؤدي ما لا يؤديه القول، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف، ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع، ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي

(١) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير (١/ ٤٠٣).

(٢) الأنفال: ٢.

(٣) الفرقان: ٧٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير (٦/ ١٣١).

(٥) المائدة: ٨٣.

(٦) تفسير الخازن (٢/ ٣٢٤).

تأثروا به هذا التأثير عند سماع القرآن، والشعور بالحق الذي يحمله، والإحساس بما له من سلطان، إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً، موقف القبول لهذا الحق، والإيمان به، والإذعان لسلطانه، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة^(١).

ويقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٢)، قال ابن القيم رحمه الله في الصواعق المرسلة: ذم الله المحرفين لكتابه والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة؛ وهي الأمانى^(٣)، وعن قتادة قال: إنما هم أمثال البهائم، لا يعلمون شيئاً^(٤)، وقال الماوردي: والثالث... يعني: إلا تلاوة من غير فهم؛ قاله الفراء والكسائي^(٥).

قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿نَقْشَعُرُهُمْ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٦)، أي هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعرون منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار

(١) في ظلال القرآن (٢/٤١٦).

(٢) البقرة: ٧٨.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة/ ابن القيم (٣/١٠٤٩).

(٤) تفسير الطبري (٢/٢٦٠).

(٥) النكت والعيون/ الماوردي (١/٦٥).

(٦) الزمر: ٢٣.

من وجوه ... عددها ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ حتى قال: الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آياتُ الرحمن: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾^(١)، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾^(٣)، أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغيين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم^(٤).

وعن التابعي الجليل الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ قال: إن هذا القرآن قد قرأه عبيدٌ وصبيانٌ لا عِلْمَ لهم بتأويله، ولم يتأولوا الأمر من أوله، قال الله عز وجل: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^(٥)، وما تدبَّر آياته إلا اتباعه، والله يعلم، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما ترى القرآن له في خُلُقٍ ولا عملٍ، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفسٍ واحد، والله ما هؤلاء بالقُراء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراء تقول مثل هذا؟ لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء^(٦).

(١) مريم: ٥٨.

(٢) الأنفال: ٢.

(٣) الفرقان: ٧٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير (٧/ ٩٤).

(٥) ص: ٢٩.

(٦) أخلاق حملة القرآن للأجري (١/ ٣٩).

فتحصَّل من استعراض بعض حديث القرآن عن التدبر؛ عدَّة علاماتٍ تدلُّ على حصوله؛ منها:

١. اجتماع القلب والفكر عند قراءته.

٢. فيض العين من خشية الله.

٣. زيادة الخشوع.

٤. السجود تعظيماً لله.

٥. زيادة الإيمان؛ مع الفرح والاستبشار به.

٦. وجل القلب خوفاً من الله تعالى.

فمن وجد واحداً من هذه الصفات أو أكثر قد وصل إلى حال التدبر والتفكير بحسبه، أما من لم يحصل له أيُّ من هذه الصفات فنسأل الله ألاَّ يجرمه من لذة تدبر القرآن الكريم.



oboi.kanda.com



التدبر في السنة الشريفة

في السنة الشريفة ما لا يحصى كثرةً من كنوز التدبر العملي؛ ابتداءً من سيد الخلق وحبیب الحق ﷺ، ومروراً بصحابته البررة، وانتهاءً بالسلف الصالح من التابعين وتابعيهم بإحسان، وسنضرب صفحاً عن الآثار التي سيتم سردها في ثنايا الكتاب إثارة للاختصار، وعدم الإملال بالتكرار، فمن ذلك ما روى حذيفة رضي الله عنه قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ؛ فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ؛ فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مِثْرَسَلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ... إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ ^(١)، وتأمل قول حذيفة رضي الله عنه: «يَقْرَأُ مِثْرَسَلاً» مُسْتَحْضِراً بركة وقته ﷺ وكيف قرأ هذه الطوال مترسلاً؛ وأعجب!.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث ^(٢).

(١) صحيح مسلم (٢/١٨٦).

(٢) صحيح أبي داود (١/٢٦٢).

وقد قام النبي ﷺ ليلةً بآيةٍ يُرَدُّهَا حتى أصبحَ وهي: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ^(١)، بها يركعُ، وبها يسجدُ، وبها يدعو، فلما أصبحَ قال له أبو ذرٍّ رضي الله عنه: يا رسولَ الله؛ ما زلتَ تقرأُ هذه الآيةَ حتى أصبحتَ! تركعُ بها، وتسجدُ بها، وتدعو بها، وقد علَّمَكَ اللهُ القرآنَ كُلَّهُ، لو فعلَ هذا بعضُنا لوجدنا عليه، قال: إني سألتُ ربي عز وجل الشفاعةَ لأمتي فأعطانيها، وهي نائلةٌ إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً ^(٢).



(١) المائدة: ١١٨.

(٢) صحيح البخاري، صفة الصلاة (١/١٢١).

فضل التدبر وأهميته

التدبر هو مفتاح الفهم لكلام الله، يقول الإمام الزركشي في البرهان: تُكْرَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِلَا تَدْبِيرٍ، وعليه محل حديث عبد الله بن عمرو: لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ... ذَمَّهُمْ بِإِحْكَامِ أَلْفَاظِهِ وَتَرْكِ التَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ^(١)، وَهَذَا هُوَ النَّبِيُّ ﷺ يَصِفُ أَفْرَادًا يَذُمُّهُمْ فَيَقُولُ: يَخْرُجُ نَاسٌ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ^(٢)... يعني - والله أعلم - أنهم لا يتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم، لأن الفهم راجع إلى القلب، فإذا لم يصل إلى القلب لم يحصل فيه فهم على حال، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف فقط، وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لا يفهم^(٣).

وَبَيَّنَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: إِنِّي لَأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ فِي رَكْعَةٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذَا كَهَذَا الشَّعْرِ؟! إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، وَلَكِنْ

(١) البرهان في علوم القرآن - (١/ ٤٥٥) فصل في كراهة قراءة القرآن بلا تدبر.

(٢) صحيح البخاري (٦/ ٢٧٤٨)، وقوله: «تراقيه» جمع ترقوة، وهي عظم بين نقرة النحر والعاتق، والمراد أنها لا تصل إلى قلوبهم ولا يتأثرون بها.

(٣) كتاب الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٦٤).

إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعٌ^(١).

وأخرج الأجرئي في «حملة القرآن» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لا تشروه نشر الدقل، ولا تهدؤوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة^(٢). قال العلماء: والترتيل مستحب للتدبر ولغيره، قالوا: يستحب الترتيل للأعجمي الذي لا يفهم معناه؛ لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيراً في القلب^(٣).

ويقول الإمام ابن القيم رحمته الله: لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير؛ فإنه يورث: المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة؛ والتي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكير حتى مرّ بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه؛ فليكررها ولو مائة مرة، فقراءة آية بتفكير وتفهم خير من قراءة ختمة كاملة بغير تدبر وتفهم، وهو أنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن... فقراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب^(٤).

وإن قارئ القرآن ليحدث ربّه تعالى ويناجيه؛ فليع ما يناجي به..

(١) رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظ مسلم في إحدى رواياته (٢/ ٢٠٤).

(٢) الإتيان في علوم القرآن (١/ ٢٨٢).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (١/ ٩١).

(٤) زاد المعاد (١/ ٣٢٣).

وتأمل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا النَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١):
فقاس سبحانه مَنْ حَمَلَهُ كِتَابَهُ لِيُؤْمِنَ بِهِ وَيَتَذَكَّرَهُ وَيَعْمَلُ بِهِ وَيَدْعُو إِلَيْهِ؛ ثُمَّ خَالَفَ ذَلِكَ؛ وَلَمْ يَحْمِلْهُ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ قَلْبٍ، فَقَرَأَهُ بِهِ بَغَيْرِ تَدَبُّرٍ وَلَا تَفَهُُّمٍ وَلَا اتِّبَاعٍ لَهُ وَلَا تَحْكِيمٍ لَهُ وَعَمِلَ بِمُوجِبِهِ؛ كَحِمَارٍ عَلَى ظَهْرِهِ زَامِلَةٌ أَسْفَارٌ لَا يَدْرِي مَا فِيهَا، وَحَظُّهُ مِنْهَا حَمْلُهَا عَلَى ظَهْرِهِ لَيْسَ إِلَّا، فَحَظُّهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ كَحَظِّ هَذَا الْحِمَارِ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي عَلَى ظَهْرِهِ، فَهَذَا الْمَثَلُ وَإِنْ كَانَ قَدْ ضُرِبَ لِلْيَهُودِ؛ فَهُوَ مُتَنَاوِلٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى لِمَنْ حَمَلَ الْقُرْآنَ فَتَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ، وَلَمْ يُوَدِّ حَقَّهُ وَلَمْ يَرَعْهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ^(٢).



(١) الجمعة: ٥.

(٢) الأمثال في القرآن/ لابن القيم (ص ٢٧).

oboi.kanda.com



ولتبيين أهمية تلاوة القرآن حق التلاوة ؛ تأمل قول ابن القيم في مفتاح دار السعادة بعد أن ذكر بعض الآيات، ثم قال: فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التَّلاوةُ المطلقةُ التامةُ، وهي تلاوةُ اللفظِ والمعنى، فتلاوةُ اللفظِ جزءٌ من مُسمَّى التلاوةِ المطلقةِ، وحقيقةُ اللفظِ إنما هي الاتباعُ، يقال: اتُّلُ أثرُ فلانٍ، وتَلَوْتُ أثرَهُ وَقَوُّنُهُ وَقَصَصْتُهُ بمعنى: تَبِعْتُ خَلْفَهُ... وهذه التلاوةُ وسيلةٌ وطريقةٌ، والمقصودُ التلاوةُ الحقيقيةُ، وهي تلاوةُ المعنى واتباعُهُ تصديقًا بخبرِهِ، واثمَارًا بأمرِهِ، وانتهاءً بنهيهِ، واثمَامًا بِهِ، حيثما قادكَ انقادت معه، فتلاوةُ القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الشَّاء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقًّا^(١).



(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٢).

oboi.kanda.com



الفرق بين التدبر والتفسير

هناك من يفهم التدبر للقرآن الكريم على أنه تفسير له فحسب، بينما التدبر هو ثمرة فهم القرآن وتفسيره، والذي ينبغي على أهل التدبر والتأمل في كلام الله أن يَسْتَعِينُوا بِأَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ لِيَكُونَ تَدْبِرُهُمْ وَفَهُمُهُمْ مُتَّسِقًا تَمَامًا مع مراد الله من كلامه!.

فأما التفسير والتأويل فهو من اختصاص أهل العلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فَأَمَّا تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ فَحَرَامٌ... فَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَقَدْ تَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَسَلَكَ غَيْرَ مَا أَمَرَ بِهِ، فَلَوْ أَنَّهُ أَصَابَ الْمَعْنَى فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَكَانَ قَدْ أَخْطَأَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ، كَمَنْ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ؛ وَإِنْ وَافَقَ حُكْمُهُ الصَّوَابَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، لَكِنْ يَكُونُ أَخْفَ جُزْمًا مِمَّنْ أَخْطَأَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

أما التدبر؛ فيقول الله تبارك وتعالى عنه في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(٢)، أي: فهل من مُعْتَبِرٍ مُتَّعِظٍ، يتذكر فيعتبر بما فيه من العبرِ

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧٠).

(٢) القمر: ١٧.

والذِّكْرُ^(١)، قال البَقَاعِيُّ: وهي إشارةٌ إلى ارتفاعِ عُذْرٍ مَنْ تَعَلَّقَ بِاسْتِصْعَابِ الْأُمُورِ على زَوَاجِرِهِ وَتَنْبِيهَاتِهِ وَمَوَاعِظِهِ، وَيَدَّعِي بَعْدَ ذَلِكَ اسْتِغْلَاقَهُ؛ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ مُيسَّرٌ قَرِيبُ الْمَرَامِ، وَهَذَا فِيهَا يَحْصُلُ عِنْدَ التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ لَمَّا عِنْدَهُ؛ بِكَوْنِ الِاسْتِجَابَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَوَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْمُشْكِكِ وَالْمُتَشَابِهِ مَا لَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَهُ، وَحَسَبُ عَمُومِ الْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِهِ، وَالْعَمَلَ بِمُحْكَمِهِ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ تَعَالَى فَهَمَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ شَرَّفَهُ بِهِ وَأَعْلَى دَرَجَتِهِ^(٢).



(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٨٤).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٨/ ٢٦٤).

ثمرات تدبر القرآن الكريم وفوائده

إن الثمرة العظمى، والفائدة الكبرى من تدبر كلام الله هي أن يثمر في القلب إيماناً، يدفع صاحبه إلى العمل بمقتضاه، بحيث يكون رضى الله وحده مبتغاه، فلا يرى دون ذلك ولا بعده شيئاً، إلا أن يكون موصلاً إليه أو ممراً عليه، فأما التدبر المجرد دون اعتبار وعملٍ فمحصلته في نهاية الأمر رهبةٌ وسفسطة لم يقصد إليهما الشارع الحكيم من إنزال القرآن الكريم، فقد نزل ليكون هداية للبشر، ونبراساً لهم في دياجير الحضارات الأرضية، ولا يمكن أن يكون القرآن في واقعنا بهذا الوصف إلا بتطبيقه، ولا يتأتى تطبيقه إلا بفهمه وتدبره لمعرفة مراد الله من كلامه، يقول العلامة السعدي: وكلما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة^(١)، ويقول العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: فلا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه^(٢).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في فوائد التدبر والتفكير: ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده من تدبر القرآن، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها:

❖ تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَى مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَائِرِهَا.

(١) تفسير السعدي (١/ ١٨٩ - ١٩٠).

(٢) تفسير القرآن للعثيمين (١/ ٢٠).

- * وعلى طُرقاتها وأسبابها وثمراتها ومآل أهلها.
- * وتجعل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة.
- * وتثبت قواعد الإيَّان في قلبه.
- * وتُريه صورة الدنيا والآخرة أو الجنة والنار في قلبه.
- * وتُحضره بين الأمم، وتُريه أيام الله فيهم.
- * وتُبصِّره مواقع العِبر.
- * وتُشهدُه عدل الله وفضله.
- * وتُعَرِّفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه.

- * وقواطع الطريق وآفاته.
 - * وتعرفه النفس وصفاتها.
 - * ومفاسدات الأعمال ومصحاتها.
 - * وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار.
 - * وأعمالهم وأحوالهم وسيئاتهم.
 - * ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة^(١).
 - * وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترون فيه.
- حتى قال: فلا تزال معانيه — أي القرآن الكريم:

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٨٥ - ٤٨٦).

- * تُنْهَضُ الْعَبْدَ إِلَى رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ.
- * وَتَحْذَرُهُ وَتَخُوفُهُ بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَيْلِ.
- * وَتَهْدِيهِ فِي ظُلَمِ الْأَرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ.
- * وَتَصَدِّهِ عَنْ اقْتِحَامِ طُرُقِ الْبِدْعِ وَالْأَضَالِيلِ.
- * وَتُبَصِّرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَتُوقِفُهُ عَلَيْهَا؛ لِئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ.
- * وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عِزَمَاتِهِ: تَقَدَّمَ الرُّكْبُ وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ، فَالْحَقَّ الْحَقَّ وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ.
- وَفِي تَأْمُلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ وَتَفْهَمِهِ أَوْجَعُ مَا ذُكِرَ مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ، وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ، طَلَسْمُهُ الْغَوْصُ بِالْفِكْرِ إِلَى قَرَارِ مَعَانِيهِ^(١)... حَتَّى أَوْجَزَ ذَلِكَ رَحْمَتُهُ فَقَالَ: وَبِالْجُمْلَةِ تُعَرِّفُهُ - أَيِ الْآيَاتِ:
- ١. الرَّبَّ الْمَدْعُوَّ إِلَيْهِ.
- ٢. وَطَرِيقَ الْوَصُولِ إِلَيْهِ.
- ٣. وَمَا لَهُ مِنَ الْكِرَامَةِ إِذَا مَا قَدَّمَ عَلَيْهِ.
- وَتُعَرِّفُهُ فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ ثَلَاثَةً أُخْرَى:
- ٤. مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ.
- ٥. وَالطَّرِيقَ الْمَوْصِلَةَ إِلَيْهِ.

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٥١).

٦. وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه^(١).

ويقول العلامة السَّعْدِيُّ: إن تدبَّرَ كتابَ الله:

* مِفْتَاحٌ للعلوم والمعارف.

* وبه يُسْتَتَجُّ كُلُّ خَيْرٍ.

* وتُستخرج منه جميع العلوم.

* وبه يزداد الإيمان في القلب وترسُّخُ شجرته، فإنه:

○ يُعرِّفُ بالربِّ المعبودِ.

○ وما له من صفاتِ الكمالِ.

○ وما يُنزِه عنه من سماتِ النقصِ.

* ويُعرِّفُ الطريقَ المؤصِّلةَ إليه وصفةَ أهلها.

* وما لهم عند القدومِ عليه.

* ويعرِّفُ العدوَّ الذي هو العدوُّ على الحقيقة.

* والطريقَ الموصلةَ إلى العذابِ، وصفةَ أهلها.

* وما لهم عند وجودِ أسبابِ العقابِ.

* وكلما ازداد العبد تأملاً فيه؛ ازداد علماً وعملاً وبصيرة^(٢).

إنَّ مَنْ يتدبَّرُ القرآنَ الكريمَ حقَّ تدبُّره؛ يُحَصِّلُ من المنافع والمصالح الدنيوية

(١) مدارج السالكين (١/٤٥٢).

(٢) تفسير السعدي (١/١٨٩).

والآخروية ما لا يعلمه إلا الله، ومن أعظم ثمرات التدبر وفوائده أن يكون مَظِنَّة ما يلي:

* حصول الثبات على دين الله:

يقول ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه»^(١)، فكتاب الله هو أعظم وسائل الثبات للمؤمنين، ولقد أنزل الله القرآن منجماً مفزقاً، وجعل الغاية من ذلك هي تثبيت قلب النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(٢)، ثم أخبر أنه أنزله تثبيتاً للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٣)، فالقرآن الكريم أعظم مصادر الثبات، ذلك أنه يزرع الإيمان ويقوي الصلة بالله، ولذلك دعانا الله سبحانه إلى التدبر فقال: ﴿كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٤)، أي: وليتذكر أصحاب العقول السليمة ما كلفهم الله به^(٥)، فالغاية هي التذكر والاتصال بالله تعالى!

(١) الموطأ برواية يحيى الليثي (٢/ ٨٩٩)، قال الألباني: رواه مالك مرسلًا، والحاكم من حديث ابن عباس وإسناده حسن، وله شاهد من حديث جابر خرجته في (سلسلة الأحاديث الصحيحة - ١٧٦١).

(٢) الفرقان: ٣٢.

(٣) النحل: ١٠٢.

(٤) ص: ٢٩.

(٥) التفسير الميسر (٨/ ١٨٥).

* تحقيق صحة الأعمال ثم قبولها:

يقول العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ: وقد تبين من الكتاب والسنة أن العمل حتى يكون صالحًا مقبولًا يُقرب إلى الله سبحانه فلا بد من أن يتوفر فيه أمران هامان عظيمان:

○ أولهما: أن يكون صاحبه قد قصد به وجه الله عز وجل.

○ وثانيهما: أن يكون موافقا لشرع الله تبارك وتعالى في كتابه، أو بينه رسوله في سنته، فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل صالحا ولا مقبولا^(١).

وهذا الأخير - أي الموافقة - لا يعرف إلا من خلال معرفة مراد الله لتتبعه، وإلا صار ابتداءً من تلقاء أنفسنا وأهوائنا، ومراد الله لا يُعرف إلا بتدبر كلامه، ومن عرف مراد الله؛ أوشك أن يعمل به مخلصًا فيُكتب له القبول.

* حصول اليقين الدافع للعمل:

يقول العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله؛ لأنه يراه يصدق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا^(٢)، ولهذا لم يملك إخواننا من الجن إذ سمعوه أن قالوا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾^(٣)، ولما سمعوه جمع منهم فتدبروه وفهموه؛ عملوا مباشرة بما يقتضيه هذا الفهم، يقول

(١) التوسل (١٢/١).

(٢) تفسير السعدي (١٨٩/١).

(٣) الجن: ١-٢.

تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ^(١).

يقول صاحب الظلال رحمه الله: لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به، وهي حالة من امتلاء حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه دفعا إلى الحركة به والاحتفال بشأنه، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام ^(٢). وبقول الطبري في معنى قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَبَرُوا عَائِيَتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ^(٣): ليتدبروا حُجَجَ الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به ^(٤).

* حصول التذكرة الجالبة للمنفعة العاجلة والآجلة:

فقد حصر الله تعالى الفائدة من إنزال الكتاب فقال: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَبَرُوا عَائِيَتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ^(٥)، وقال في موضع آخر: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ۚ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّفْيِ وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ﴾ ^(٦)، وقال: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ ^(٧)، وقال عن ابن أم مكتوم: ﴿أَوْ

(١) الأحقاف: ٢٩.

(٢) في ظلال القرآن (٦/٤٢٨).

(٣) ص: ٢٩.

(٤) تفسير الطبري (٢١/١٩٠).

(٥) ص: ٢٩.

(٦) المدثر: ٥٤-٥٦.

(٧) الأعلى: ١٠.

يَذْكُرُ فَنَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ﴿١﴾، قال الطبري: يعني: يعتبر فينفعه الاعتبار والاتعاظ^(٢)، وقال الماوردي: وفي الذكرى وجهان: أحدها: الفقه، والثاني: العظة^(٣)، وقال ابن تيمية في المجموع: والنفع نوعان: حصول النعمة، واندفاع النعمة، ونفس اندفاع النعمة نفع؛ وإن لم يحصل معه نفع آخر، ونفس المنافع التي يخاف معها عذاب نفع، وكلاهما نفع، فالنفع تدخل فيه الثلاثة، والثلاثة تحصل بالذكرى^(٤)!

وفوائد التدبر وثماره أكثر من ذلك، ولا يقوم بإحصائها أحد، ولكن جماعها وخلاصتها أن يقود التدبر صاحبه إلى مرضاة الله، وأن ينجيه من الهلكة بعذاب الله، ولا يتحصل ذلك إلا بمعرفة مراد الله في كتابه، ثم السير على منهاجه وسبيله بلا زيغ ولا نكوص، والله أعلم.

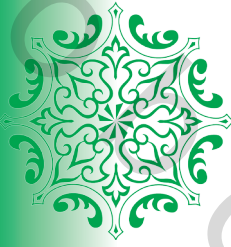


(١) عبس: ٤.

(٢) تفسير الطبري (٢٤/٢١٩).

(٣) النكت والعيون للماوردي (٤/٣٨٣).

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير ٤/٢٢٧).



قاعدة جلية لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي الانتفاع بالقرآن

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: إذا أردت الانتفاع بالقرآن؛ فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألْقِ سَمْعَكَ واحْضَرْ حضورَ مَنْ يَخَاطَبُهُ بِهِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ؛ فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ^(١)، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثرٍ مقتضى، ومحلٍّ قابلٍ، وشرطٍ لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظٍ وأبينه وأدله على المراد:

١. فقلوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ﴾ هو المؤثر.

٢. وقوله: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ هو المحلُّ القابل، والمراد به: القلب الحي الذي يَعْمَلُ عن الله؛ كما قال تعالى في سورة يس: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ^(٢) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا أَي: أي: حي القلب.

٣. وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي: وجّه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما

(١) ق: ٣٧.

(٢) يس: ٦٩-٧٠.

يُقال له، وهذا شرطُ التأثير بالكلام.

٤. وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شاهدُ القلبِ، حاضرٌ غيرُ غائبٍ، قال ابن قُتَيْبَةَ: استمعَ كتابُ الله وهو شاهدُ القلبِ والفهم؛ ليس بغافلٍ ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير؛ وهو سَهُو القلبِ وَغَيْبَتُهُ عن تَعَقُّلِ ما يقال له، والنظر فيه وتأمله.

فإذا حَصَلَ المؤثرُ: وهو القرآن، والمَحَلُّ القابلُ: وهو القلبُ الحي، ووُجِدَ الشرطُ: وهو الإصغاء، وانتفى المانع: وهو اشتغالُ القلبِ وذُهوْلُهُ عن معنى الخطابِ، وانصرافه عنه إلى شيءٍ آخر؛ حَصَلَ الأثر وهو الانتفاعُ والتذكرُ^(١)!



الثَّوَابُ الْمُرْتَبُ عَلَى عَدَدِ الْأَحْرَفِ وَغَيْرِ الْمُرْتَبِ

لقد رَتَّبَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ عَلَى لِسَانِ الْحَبِيبِ ﷺ ثَوَابًا عَلَى كُلِّ حَرْفٍ يُتْلَى مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿اللَّهُ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَا مٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(١).

فَأَيُّهُمَا أَفْضَلُ وَأَثْوَبُ: التلاوة بمرتبة التحقيق مع قلة مقدار ما يُتلى، أم التلاوة بمرتبة الحذر السريعة لتحصيل كثرة عدد الأحرف؟

إِنَّ النَّظَرَ إِلَى حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ مُجَرَّدًا يَسُوقُ إِلَى أَفْضَلِيَةِ عَدَدِ الْأَحْرَفِ عَلَى التَّدْبِيرِ، لَكِنَّ الْفَاصِلَ هُوَ فِعْلُ النَّبِيِّ ﷺ، فَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسًا عَنْ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ يَمُدُّ مَدًّا»^(٢)، وَقَالَ شُعْبَةُ: حَدَّثَنَا أَبُو جَهْرَةَ، قَالَ: «قُلْتُ لَأَبْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي رَجُلٌ سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ، وَرَبِّمَا قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِأَنْ أَقْرَأَ سُورَةً وَاحِدَةً أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ

(١) صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٧٧).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٩٢٤).

الذي تفعل!! فإن كنت فاعلا ولا بُدَّ؛ فاقراً قِراءةً تُسْمَعُ أُذُنُكَ، وَيَعِيهَا قَلْبُكَ»^(١).

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بِحَبِيب:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كَلَامٍ وَاضِحٍ نَفِيسٍ: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أَجْلٌ وأرفع قدرًا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا، فالأول كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبدًا قيمته نَفِيسَةٌ، والثاني كمن تصدق بِعَدَدٍ كَثِيرٍ من الدراهم، أو أعتق عددًا من العبيد قيمتهم رخيصة^(٢).

وهذا رسول الله ﷺ يقوم ليلة كاملة بآية واحدة يتدبرها، فعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: صلى رسولُ الله ﷺ ليلةً؛ فقرأ آية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إِنْ تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^{(٣)(٤)}.

وَقَدْ أَقَامَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَى حِفْظِ الْبَقَرَةِ سِنِينَ، ذَكَرَهُ مَالِكٌ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^(٥)، وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(٦)، وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾^(٧)، وَتَدَبَّرُ الْكَلَامَ دُونَ فَهْمِ مَعَانِيهِ غَيْرُ مُمَكِّنٍ^(٨).

(١) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي (١/٧).

(٢) زاد المعاد (١/٣٣٩).

(٣) المائدة: ١١٨.

(٤) مسند أحمد بن حنبل (٥/١٤٩)، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٥) ص: ٢٩.

(٦) النساء: ٨٢.

(٧) المؤمنون: ٦٨.

(٨) شرح مقدمة التفسير (٣/١).

وروى القرطبي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن - منهم الصبي والأعمى - ولا يُرزقون العمل به^(١).

وعن أم المؤمنين حفصة بنت الفاروق رضي الله عنها؛ أنها قالت في طائفة من حديث عند الإمام مسلم، عن الحبيب رضي الله عنه: وكان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها^(٢)، أي أطول في زمن تلاوته لها لكونها تلاوة بطيئة؛ من السورة التي تفوقها طولاً إذا تلاها غيره لكونها تلاوة سريعة، والله أعلم.

اختيار الإمام النووي رحمته الله:

قال النووي رحمته الله: والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان من أهل الفهم وتدقيق الفكر؛ استحب له أن يقتصر على القدر الذي لا يحتل به المقصود من التدبر واستخراج المعاني، وكذا من كان له شغل بالعلم وغيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة؛ يستحب له أن يقتصر منه على القدر الذي لا يُحِلُّ بما هو فيه، ومن لم يكن كذلك فالأولى له الاستكثار ما أمكنه من غير خروج إلى الملل، ولا يقرؤه هزيمة^(٣).

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤٠).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٦٤).

(٣) نقله عن النووي ابن حجر في الفتح ٩/ ٩٧

ما الفرق؟!

والظاهر من فعل السلف أنهم كانوا يقيمون على السورة من القرآن الكريم، يتعلمون ما فيها من الأحكام والعلم حتى تنشرها قلوبهم وعقولهم، ويُدرِّجُونها في أعمالهم حتى تكون واقعا تألفه جوارحهم سَلِيْقَةً وَتَطَبُّعًا، فإذا قرأ أحدُهم السورة من الطَّوَال بعد هذا التدبر الطويل في ليلةٍ واحدةٍ كان تأثره بها شديداً، وتفاعله معها عظيماً، كيف لا وقد أنفق في تدبرها السنين، وكابد في فهمها الليالي والأيام، وله عند كل حرف عِبْرَةٌ وَعَبْرَةٌ، وفي كل كلمة فكرةٌ وَخَلْجَةٌ، أمَّا أن يكون كُلُّ عهدهِ بها هو تلاوتُها هذرمةً في ليلةٍ واحدةٍ، دون أن يكون سَلَفٌ منه تدبُّرٌ لأجزائها وآيتها؛ فهذا هو المذموم.

وَرَوَى الإمامُ أحمدُ بسنده عن عائشة رضي الله عنها؛ أَنَّهُ ذُكِرَ لها أَنَّ ناسًا يتلون القرآن في الليلِ مرةً أو مرتين، فقالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنتُ أقومُ مع النبي صلى الله عليه وآله ليلةَ التمام، فكان يقرأ سورةَ البقرةِ وآلَ عمرانَ والنساءِ؛ فلا يمرُّ بآيةٍ فيها تَخَوُّفٌ إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمرُّ بآيةٍ فيها استبشارٌ إلا دعا الله وَرَغِبَ إليه ^(١).



(١) المسند (٦ / ٩٢)، ونقله ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (١ / ٧٧).

من هو صاحب القرآن ؟

وعند الإمام أحمد بسنده، عن النبي ﷺ: يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ وَرَتِّلْ كما كنت تُرَتِّلُ في الدنيا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عند آخر آية تَقْرُؤُهَا^(١) ولا يوصف القارئُ بأنه صاحبٌ للقرآنِ إلا إذا كانَ ملازمًا له ملازمةَ الصاحبِ لصاحبه، وكان على خُلُقٍ هذا الصاحبِ وهو القرآنُ، فالمرء على دين خليله، فإذا كانَ دِينُهُ وَخُلُقُهُ القرآنَ؛ فهو صاحب القرآن، وإلا فليس بصاحبه، ولولا ذلك لقال ﷺ: يقال لقارئ القرآن: اقرأ... فتأمل!

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (صاحب القرآن هو العالم به، العامل بما فيه، وإن لم يحفظه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل به فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم)^(٢).

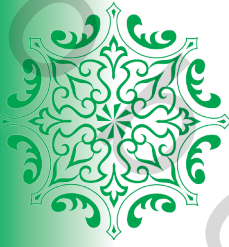


(١) المسند (٢/ ١٩٢).

(٢) كتاب الفوائد لابن القيم.

oboi.kanda.com





مَعَالِمُ عَلَى طَرِيقِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

إن تدبر القرآن الكريم مَقْصِدٌ أساسيٌّ من مقاصد نزوله، فهو السبيل لفهم أحكامه، وهو الطريق لبيان غاياته ومقاصده؛ فلا يُفهم القرآن حق الفهم، ولا تُعرف مقاصده وغاياته حق المعرفة؛ إلا بالوقوف عند آياته وتدبرها حق التدبر، لكشف ما وراءها من حكم ومعان!..

وفي السنة الشريفة من حديث رسول الله ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله؛ يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم: إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهُمُ الملائكةُ، وذكرَهُمُ الله فيمن عنده»^(١)، فقد قرَنَ الحديثُ بين التلاوةِ والمُدارسةِ، ورَتَّبَ عليهما معًا: السكينةَ والرحمةَ وِرْفَةَ الملائكةِ وِذْكَرَ الله لقارئِ كتابه!..

ومع كثرة من يتلون القرآن الكريم - خصوصًا في رمضان - فإن الكثير منهم لا يزال يتلوه دون تدبر ولا فهم، الأمر الذي أدى إلى تفويت المقصد الأساس الذي لأجله أنزل القرآن، ألا وهو العمل بأحكامه، واتباع أوامره، واجتناب نواهيه.

(١) صحيح مسلم (٨ / ٧١).

ولعل الحديث عن كيفية التدبر وطرائقه تفصيلاً أن يكون محلّه في غير هذا المصنّف، فقد صنّف فيه كثيرون من أهل العلم، ولكن لا بأس بأن نطوف بها على عجل؛ إشارة لمن أراد التذكرة، وهذه إطلاقة على بعض المعالم المهمة التي تساعد على تدبر القرآن الكريم:

أن يكون التدبر هو الأصل عند القارئ:

فالتدبر هو الأصل في تلاوة القرآن الكريم؛ حتى عند من يريد الحفظ، فلا بد أن يكون له ورد من التدبر مع الحفظ، لا أن يحفظ القرآن الكريم أولاً ثم يبحث عن التدبر، فقد حذر ابن عمر رضي الله عنهما بالغ التحذير من هذا المنهج المعكوس بقوله: ولقد رأيت رجالاً يُؤتَى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يدري ما أمره وزاجره، وما ينبغي أن يقف عنده منه ^(١)!

وكان هذا منهج النبي ﷺ مع صحابته، فقد روي عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: حدّثنا الذين كانوا يُقرئونا القرآن؛ كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما رضي الله عنهما: أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ^(٢)، ولهذا كانوا يمكثون في حفظ السورة الواحدة مدة طويلة.

الاستعداد للتلاوة ومراعاة آدابها:

ومن ذلك حُسْنُ اختيار المكان والزمان المناسبين، والتهيئة الذهنية والبعد عن

(١) بحث الواجب الدعوي على حملة القرآن (١/ ٢٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤١٠).

المشغلات، أما آدابُ التلاوة فكثيرة معلومة، لكنَّ مجرد استصحابها قبل الشروع في التلاوة مما يهيئ القلب لاستقبال كلام الله، ومن تهيئة القلب كذلك: أن تكون تلاوة القرآن الكريم بعد طاعة أو قربة كصلاة فريضة، أو اغتناما للحظات قُرب من الله جل وعلا، كمن سمع موعظة وتأثر بكلام أهل الصلاح والخير، أو وقعت له حاجة ألجأته إلى الله تعالى وهو على فتور.

استحضار أهمية الفهم والتدبر:

واستحضار عِظَم ثوابها غير المرتَّب على الثواب الموعود على عدد الأحرف، وهذا الاستحضار له فائدتان:

*** الأولى:** عدم انشغال البال بفوت الثواب المرتب، الذي ينصرف له الذهن عادة عند التلاوة.

*** والثاني:** جمع القلب على الانتفاع بما يتلوه اللسان، فيتواطآن معاً على التلاوة، فكأن اللسان يجمع الثواب المرتَّب على عدد الأحرف، والقلب يجمع الثواب غير المرتب بالتدبر!

العكوف على قراءة القرآن مع التأمل والنظر والتفكير في آياته:

التفكير والتدبر والنظر والتأمل يفتح لقارئ كتاب الله كثيراً من المعاني التي لا يمكن أن يكتسبها إلا من خلال ذلك.

ومن الأهمية بمكان تسجيل الخواطر والمعاني لحظة ورودها، أو بعد الانتهاء من وِرد التلاوة مباشرة، مع الحرص على تطبيق كل آية تمر أثناء القراءة في الواقع العملي بعد ذلك، قال ﷺ في بعض حديثٍ رواه مسلم: **وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ**

عَلَيْكَ^(١)، وهذا كله مما يعين على توارد آيات القرآن على القلب آناء الليل والنهار بعفوية وتلقائية، يقول مُطَرِّفُ بن عَبْدِ اللَّهِ بن الشَّخِير: إني لأستلقي من الليل على فراشي فأتدبر القرآن، وأعرض عملي على عمل أهل الجنة؛ فإذا أعمأهم شديدة: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢)، ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾^(٣)، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ إِذْ أَدَّ الْأَيْلَ سَاجِدًا وَّاقِيَمًا﴾^(٤)، فلا أراني فيهم، فأعرض نفسي على هذه الآية: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾^(٥) فأرى القوم مكذابين، وأمرُ بهذه الآية: ﴿وَأَخْرُونَ اعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ حَلْطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرَ سَيِّئًا﴾^(٦)؛ فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوانه منهم^(٧).

الرجوع إلى كتب التفاسير المعتمدة:

والنظر إلى أقوال أهل العلم الواردة فيها، خصوصا لمن لم يسعفه نظره المجرد وتأمله في القرآن الكريم دون الاستعانة بها، فقد حوت تلك الكتب كثيرا من تفاسير السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، كـ(تفسير ابن كثير، والطبري، والقرطبي) وغيرهم، فالرجوع إليها عون على تدبر آيات الكتاب وفهمه الفهم السليم. ولا مانع من الاطلاع على التفاسير المختصرة، خصوصا ما كان بهامش

(١) صحيح مسلم (١/ ١٤٠).

(٢) الذاريات: ١٧.

(٣) الفرقان: ٦٤.

(٤) الزمر: ٩.

(٥) المدثر: ٤٢.

(٦) التوبة: ١٠٢.

(٧) حلية الأولياء (٢/ ١٩٨).

المصحف، وذلك لبيان كلمة غريبة، أو تحديد معنى غامض، أو معرفة حكم خاص، كـ(زبدة التفسير) للشيخ محمد سليمان الأشقر.

معرفة أسباب النزول:

وتُعَدُّ من الأمور المهمة في تدبر القرآن الكريم؛ لأن نزول كثير من الآيات قد ارتبط بمناسبات ووقائع معينة، ومن المهم أن تُفهم الآيات في ضوءها ليسهل تنزيلها على الواقع الحالي للمسلم، فالتاريخ يُعيدُ نفسه، وتتداعى أحداثه ووقائعه في تشابهٍ يكادُ يكونُ كالتركرار.

تكرار الآيات - خصوصًا التي تلمس واقع القارئ - حتى يجد أثرها في قلبه:

وقد كانت هذه عادة السلف؛ يرددُ أحدهم الآية إلى الصباح، وقد ثبتَ عن النبي ﷺ؛ أنه قام بآية يرددُها حتى الصباح؛ وهي قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١)، فترديد الآية يسمح بتوارد معانيها على القلب، وتقليب الفكر فيها على أوجهها، مع وصل الآية بواقع تاليها، وإنزال حكمها عليه، ليرى هل يوافقها أم يتنكبها؟!، قَالَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِنِّي إِذَا قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ وَتَدَبَّرْتُهُ، كِدْتُ أَنْ آيَسَ، وَيَنْقَطِعَ رَجَائِي، فَقَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، وَأَعْمَالُ ابْنِ آدَمَ إِلَى الضَّعْفِ وَالتَّقْصِيرِ، فَاعْمَلْ، وَأَبْشِرْ^(٢).

القراءة في الكتب المتخصصة في التدبر:

لأنها تُطَلِّعُ قارئها على تجارب سابقيه، وتحفزُ همته للحاق بركبهم، وتعطيه

(١) المائدة: ١١٨.

(٢) سنن النسائي (٢/ ١٧٧).

(٣) ترجمة الأئمة الأربعة (١/ ٣١٦).

خلاصة ذلك، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر:

- * (القواعد الحسان لتفسير القرآن) للشيخ عبدالرحمن بن سعدي.
- * (مفتاح تدبر القرآن والنجاح في الحياة) د. خالد بن عبد الكريم اللاحم
- * (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل) لعبد الرحمن حبنكة الميداني.
- * (دراسات قرآنية) لمحمد قطب.
- * (مفاتيح للتعامل مع القرآن) د. صلاح الخالدي.
- تخلية النفس من صوارف القلب عن التدبر:**
- وهي كثيرة، لكن أهمها:
- * أمراض القلوب بأنواعها.
- * الإصرار على الذنوب والمعاصي.
- * العجلة وعدم الترتيل عند التلاوة.
- * حَصْرُ معاني الآيات المتلوة في الذين نزلت فيهم كالمنافقين أو الكفار.
- * قَصْرُ الخشوع والتفكير على آيات العذاب والوعيد.
- روى أبو نعيم الأصبهاني في الحلية بسنده، قال: حدثنا سُفيان بن عُيَيْنَةَ قال، قال عثمان بن عفان له: لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام الله. وقال عثمان: ما أحبُّ أن يأتي عليَّ يومٌ ولا ليلةٌ إلا أنظر في كلام الله، يعني: القرآن في المصحف^(١).

